مكونات الفعل التداولي في التضمين في تفسير روح المعاني للآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ)

الباحث/ عبدربه السعيد عبدربه

إشراف

الأستاذ الدكتور/ عيسى شحاته عيسى

ملخص البحث:

تناول البحث (مكونات الفعل التداولي في التضمين في تفسير روح المعاني للآلوسي)، والفعل التداولي عند الآلوسي يتكون من ثلاثة أركان رئيسية هي المخاطِب، والمخاطَب، والخطاب، وكل واحد منها له دوره في عملية التواصل بين أفراد المجتمع، وباهتمام هذا العلم بدراسة كيفية التفاهم بين الناس بعضهم بعضاً، وبطريقة إنتاجهم لفعل كلامي تواصلي في موقف كلامي ملموس يفهم عن طريق توافر العناصر المكونة للفعل التداولي.

إن التداولية علم يدرس اللغة في سياقاتها الواقعية، لا في حدودها المعجمية أو تراكيبها النحوية؛ فجاءت هذه الدراسة لتوضيح هذا العلم الحديث وأبعاده، وبيان تطبيق العرب وخاصة الآلوسي لهذا الدرس اللساني وإن كانوا قد سموه بأسماء تختلف عن مسميات الغرب.

تركزت هذه الدراسة في المخاطِب، والمخاطَب والخطاب في مدونة روح المعاني للآلوسي، وإبراز ما يشتمل عليه من الدرس التداولي، وكانت الآيات التي بها تضمين من خلال روح المعاني للآلوسي موضوع البحث الذي نحن بصدده.

وقد وقف البحث على أهم الأبعاد التداولية الواردة في الآيات التي بها تضمين من خلال روح المعاني للآلوسي التي تمثلت في رصد مكونات الفعل التداولي متتبعا إياها في تفسير روح المعاني للآلوسي وقد وجدت الآلوسي استعمل الدرس التداولي في كثير من المواضع وإن كانت بمسميات تختلف عن مسميات الغرب ومصطلحات تتناسب مع لغتنا العربية.

كلمات مفتاحية: الفعل؛ التضمين؛ التداول.

Research Summary:

Components of pragmatic action in implication in the interpretation of Ruh al-Maani by Al-Alusi

According to Al-Alusi, the deliberative act consists of three main pillars: the addressee, the addressee, and the discourse, and each of them has its role in the process of communication between members of society. This science is interested in studying how people understand each other, and in the way they produce a communicative speech act in a concrete speech situation that is understood through the availability of the elements that make up the deliberative act.

Pragmatics is a science that studies language in its realistic contexts, not in its lexical boundaries or grammatical structures. This study came to clarify this modern science and its dimensions, and to explain the application of the Arabs, especially Al-Alusi, to this linguistic lesson, even if they called it by names different from the names of the West.

This study focused on the addressees, the addresses and the discourse in Al-Alusi's Ruh al-Ma'ani blog, highlighting the pragmatic lesson it contains, and the verses that were included in Al-Alusi's Ruh al-Ma'ani were the subject of the research we are dealing with.

The research focused on the most important pragmatic dimensions mentioned in the verses that are included through the spirit of meanings by Al-Alusi, which was represented in monitoring the components of the pragmatic act, following them in the interpretation of the spirit of meanings by Al-Alusi. I found that Al-Alusi used the pragmatic lesson in many places, although with names that differ from Western names and terminology. It is compatible with our Arabic language.

Keywords: action; inclusion; Trading

مقدمـــــة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن خطابا مفصلا ليكون منهجا مفهوما للتطبيق والعمل به كدستور للحياة، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد الذي خاطبه الله بهــذا القرآن ليكون خطابا لأمته من بعده وبعد...

تنطلق هذه الدراسة محاولةً تمّثل المنجز اللساني الحديث في دراسة منهج علمـــاء التفسير في فهم النّص القرآني، واضعةً ما توفره النظريات اللسانية، ونظريات التداولية من أدوات تحليلية ورؤى منهجية في فهم النص، لأغراض دراسة مناهج المفسرين فـــي فهـــم النّص القرآني وصولاً لكشف ما تحمله قواعدهم في التفسير من تبصر بالقضايا التداوليـــة، غير مكتفية بالوصف والكشف عن المكونات اللسانية والتداولية لقواعد التفسير، بل ســـاعية لوضع ما تكشفه وتصفه تحت مجهر العملية النقدية، لتظهر القـــوة النظريـــة والإجرائيـــة المضافة بين طرفي الدراسة: منهج علماء التفسير و قواعده، والمناهج اللـــسانية التداوليـــة الحديثة، إيماناً من الدراسة أن بحث المناهج التراثية الأصـــولية فـــي ضـــوء المنجـــزات المتراكمة والمتلاحقة لعلمي اللسانيات والتداولية لا يقف عنـــد حـــدود إعـــادة التوصـــيف والترتيب للمنجز التراثي وفق مسميات الدراسات اللغوية الحديثة، بل ينبغي تجـــاوز ذلـــك وصولاً لإعادة تشكيل قواعد فهم القرآن وتفسيره التي وضعها المفسرون في قواعد لـــسانية تداولية ولاسيما أن الدراسة تنطلق من فرضية ستحاول إثباتها، مفادها: تبـــصر المفـــسرين لكثير من أصول النظريات التداولية بالمعنى العام والخاص لها، من غير محاولـــة فـــرض عناصر النظريات التداولية ومصطلحاتها على قواعد المفسرين وفكرهم، وهـــذا لا يـــتم إلا بالانطلاق من مفاهيم المفسرين الخاصة إلى المفاهيم التداولية من غير لجاجةٍ اصـــطلاحية، وإعادة التشكيل هذه تشمل التعديل والزيادة والإلغاء في هذه القواعد متى قام لكـــلّ واحـــدة منها دليله، واستقر مع البحث برهانه؛ فالدراسة تنطلق من إيمانٍ راســـخ أن المقـــدس فـــي القرآن نصه لا فهمه، فلكلّ زمانٍ أهله لهم فهمهم وقراءتهم للقرآن.

انطلاقا مما سبق، فإن الدراسة تهدف إلى:

-دراسة منهج علم من علماء التفسير وقواعده في فهم النّص القرآني في ضـــوء الدراسات اللسانية التداولية الحديثة، لتكشف الأصول النظرية الكامنة في منـــاهج التفـــسير مؤسسةً على قواعد علمي اللسانيات والتداولية (علم التخاطب).

خطية الدراسة:

جاءت الدراسة في مقدمة ومبحثين وخاتمة تضم أهم النتـــائج وقائمـــة بالمـــصادر والمراجع.

المبحث الأول/ المخاطب.

المبحث الثاني/ المخاطب المتلقي.

المبحث الثالث/ الخطاب ومعناه(النص).

المبحث الأول/ المخاطِب:

يعد المخاطِب أحد عناصر الفعل التداولي، ولا يمكن تحقق نجاح للخطاب دون دراسة المخاطِب، ولأن علم التخاطب نشأ في الغرب كعلم يبحث التواصل الإنساني توسع في بحث عنصر المخاطِب من حيث كونه إنساناً يتمتع بعناصر القوة الإنسانية، وتحده عناصر الضعف الإنساني. إلا أن دراسة المخاطِب الإلهي تفترق ابتداء عن دراسة المخاطِب الإنساني لما بين الخالق والمخلوق من فروق ظاهرة. لكن هذا الفرق – وإن كان لا ينبغي أن يغيب عن ذهن الباحث- لا يمنع من دراسة المخاطِب الإلهي، فكونه إلهياً مفارقاً للمخلوق لم يمنع من حصول فعل التخاطب بينه وبين الإنسان. فقد ورد عن أحد السلف "من أراد أن يكلمه الله فعليه بالقرآن ومن أراد أن يكلم الله فعليه بالصلاة"، ومتى حصل التخاطب فقد تحققت في المخاطِب صفات جعلت هذا الخطاب ممكناً.(١)

والمخاطِب هو الذات المحورية في إنتاج الخطاب؛ لأنه هو الذي يتلّفظ به أو يكتبه ولنقل يُنْشِئُه، من أجل التعبير عن مقاصده، بغرض تحقيق أهدافه.(٢)

ولابد أن تظهر شخصية المخاطِب، ويدخل فيها علمه، وتجاربه، وثقافته، وحالته النفسية أثناء فعل التخاطب، وافتراضاته عن المخاطب، كما يدخل في ذلك أهلية المخاطِب لإنشاء خطابه، كالموقع الوظيفي أو المكانة الاجتماعية.(٣)

فهذه كلها عوامل تؤثر في المخاطِب وخطابه لايمكن إغفالها لإدراك دلالة الخطاب ومقاصده، ودلالة على كفاءة المخاطِب أو ما يعرف بـ"القدرة التواصلية" تتألف لدى مستعمل اللغة الطبيعية من ملكات منها: المَلَكة اللغوية، والمَلَكة المنطقية، والمَلَكة المعرفية، والمَلَكة الإدراكية والمَلَكة الاجتماعية.

ويعرف (فان دايك) (٤) هذه الملكات على النحو الآتي:

-المَلَكة اللغوية: وهي قدرة مستعمل اللغة على إنتاج عبارات لغوية متنوعة في عدد كبير من المواقف التواصلية.

-المَلَكة المنطقية: وهي قدرة مستعمل اللغة على اشتقاق معارف أخرى مما تزوده به اللغة المستعملة من معارف.

-المَلَكة المعرفية: قدرة مستعمل اللغة على تحصيل معارف منظمة تراكمية من استعمال اللغة، ومن ثم توظيف هذه المعارف لبناء مقولات لغوية.

١) مقاصد الخطاب القرآني بين المفسرين والتداوليين ص٢٦ بتصرف، إعداد: نارت محمد خير يحي فاخون، رسالة ماجستير كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩م.

٢) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص٤٥، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.

٣) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية ، ص ٤٦.

٤) النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي. ص ٢٩٨.

-المَلكة الإدراكية: قدرة مستعمل اللغة على إدراك محيطه، واشتقاق معارف يمكن أن يستعملها في بناء مقولات لغوية.

-المَلكة الاجتماعية: وهي قدرة مستعمل اللغة لا على بناء المقولات اللغوية فقط بل على توظيفها في موقف تواصلي معين قصد تحقيق أهداف معينة.

و إردافاً لما سبق فإنني ألاحظ صدور الكلام (القرآن الكريم) عن الله مع غيابه كمخاطِب مباشر لجمهور المخاطَبين من البشر؛ فمصدر النّص لهذا الجمهور هو النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء، ثم نص القرآن استمراراً، أي أننا أمام العديد من المستويات من التلقي والمتلقِّين، فصورة الغياب علامة على جلال المرسِل، وإشارة إلى تفلت الخطاب من كلّ تحديد. فالمستوى الأول من المخاطبين بالقرآن الكريم هو النبيﷺ، ثم المسلمون من بعده، وما يمكن أن يدخل في القرآن من قضايا تداولية، أشير إلى مستوى ثانٍ من المخاطِبين في النص القرآني، وهم تلكم الشخصيات التي حكى القرآن في قصصه وآياته أقوالهم وحواراتهم من مثل ماجرى على ألسنة الملائكة والأنبياء والرسل وغيرهم من الشخصيات، وما حكاه القرآن من أقوال الكافرين ومحاججاتهم. فهذه أقوال ناشئة ابتداء من مخلوقات، وتحدها حدود المخلوق، إلا أنّها في القرآن الكريم حكاية من الله لها صفات كلامه المعجزِ، ومن إعجازه أنها تحكي عن القائل قوله، وما يتأثر به من أحوالٍ نفسية وسياقية.

إذا ما نظرنا إلى أن "تشكل الخطاب القرآني إنما هو في لحظة صيرورته نصاً تداولياً، أي نصاً يتوجه إلى المخاطب في سياق تداولي."فالمهم في القرآن كيفية ظهوره إلى المخاطب، لا كيفية إنشائه من الله عز وجل.

فقد قال الجرجاني في بيان النظم القرآني: " إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلّق التي هي محصول النظم، موجودة على حقائقها وعلى الصحة وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه، ورأيناهم قد استعملوها وتصرّفوا فيها وكملوا بمعرفتها، وكانت حقائق لا تتبدّل ولا يختلف بها الحال؛ إذ لا يكون للاسم- بكونه خبرا لمبتدإ، أو صفة لموصوف، أو حالا لذي حال، أو فاعلا أو مفعولا لفعل في كلام- حقيقة هي خلاف حقيقته في كلام آخر، فما هذا الذي تجدّد بالقرآن من عظيم المزيّة، وباهر الفضل، والعجيب من الرّصف، حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقُدَر، وقيّد الخواطر والفكر"(١)

---

١) دلائل الإعجاز في علم المعاني ج١ ص١٠_١١.م

يقرر حقيقة الالتزام في النص القرآني فهو موضوع وفق نهج العرب ولسانهم لم يخترق قواعدهم، ولم يتجاوز بنية ما يستعملون من كلام. إلا أن مزية القرآن في اختياراته، وفي ما توافر من بدائل طُرحت دون ما اختاره الله، فما أعجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن إلا مزاياه كما أخبر بذلك الجرجاني فقال: "مزايا ظهرتْ لهم في نظمهِ، وخصائصُ صادفوها في سِياق لفظه، وبدائعُ راعَتْهم من مبادئ آيه ومقاطعِها، ومجاري ألفاظِها ومواقعها، وفي مضربِ كلِّ مثلٍ، ومساقِ كلِّ خبرٍ، وصورةِ كلِّ عِظَةٍ وتنبيهٍ، وإعلامٍ وتَذكيرٍ، وترغيبٍ وترهيبٍ، ومع كلِّ حُجةٍ وبُرهانٍ، وصفةٍ وتبيان، وبَهرهُم أنَّهم تأمَّلوه سُورةً سورةً، وعَشْراً عَشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة يَنْبو بها مكانُها، ولفظةً يُنكرُ شانُها، أو يُرى أنَّ غيرَها أصلحُ هناك أو أشْبَه، أو أحرى وأخْلَق، بل وجدُوا اتِّساقاً بَهرَ العُقولَ، وأعجزَ الجمهورَ، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يَدعْ في نفسِ بليغٍ منهم، ولو حكَّ بيافوخِهِ السَّماء، موضعَ طمعٍ، حتى خرسَتِ الألسنُ عن أن تدعي وتقول"(١)

معلوم أن الله متصف بصفات الجلال والكمال، ومنزه عن كل نقص، ومن صفات الله صفة الكلام، لكن كلام الله ليس ككلام البشر حيث قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١] فالقرآن كلام الله منزه عن عيوب الخطاب البشري قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وهذه الحقيقة الثابتة تفرض على الباحث التمعن والأناة والتمهل والتدقيق في تطبيق المناهج الحديثة على النص القرآني من غير أن تتحول هذه الأناة والتمهل إلى قعود ورفض لأي قراءة جديدة ومعاصرة، فحقيقة كون القرآن إلهي المصدر لاتنفي صفة التداولية عن تفسيره، ولاسيما لو نظرنا إلى مكونات الفعل التداولي الأخرى التي تحقق للنص القرآني صفة التداولية بامتياز، فالنص القرآني وإن كان إلهي المصدر فهو نص منشأٌ للفهم والإفهام، والمكلف بالفهم متلقٍ إنساني لديه ما لديه من الطاقة البشرية من وسع وقدرة، وما دام النص القرآني من الله فهذا يبين عظم المخاطِب بما له من صفات الجمال والجلال والكمال سبحانه وتعالى، وما دام الله يخاطبنا هذا يدل على أنه سبحانه وتعالى عليم بحالنا يعلم حال المخاطبين، وهذا يعطي خصوصية لدراسة النص القرآني مع ما به من إعجاز.

والنص القرآني بما له من قدسيته تقوم دراسته تداوليا من حيث إنه نص لغوي بما له من علاقة بين المخاطِب والمخاطَب، والإفادة.

---

١) دلائل الإعجاز في علم المعاني ج١ ص٣٦.

١- المتكلم هو الله عز وجل

قد بين الآلوسي الفهم للنص القرآني بما له من صفة تداولية مع أنه نص إلهي فأشار إلى المتكلم والمخاطب بالنص القرآني هو الله عز وجل على لسان سيدنا نوح عليه السلام عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[هود:٤١]، ذاكرا التضمين في كلمة اركبوا لمعنى ادخلوا، فالأمر بالركوب و تضمنه معنى الدخول من الله وهو المتكلم الحقيقي بالقرآن الكريم على لسان سيدنا نوح عليه السلام فقال: "وقال أي نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، وقيل: الضمير لله تعالى، وفيه أنه لو كان كذلك لكان المناسب إن ربكم إلخ، ولعل هذا القول بعد إدخال ما أمر بحمله في الفلك من الأزواج كأنه قيل: فحمل الأزواج حسبما أمر أو أدخلها في الفلك، وقال للمؤمنين اركبوا فيها أي صيروا فيها، وجعل ذلك ركوبا لأنها في الماء كالمركوب في الأرض ففيه استعارة تبعية من حيث تشبيه الصيرورة فيها بالركوب، وقيل: استعارة مكنية والتعدية بفي لاعتبار الصيرورة وإلا فالفعل يتعدى بنفسه، وإلى هذا ذهب القاضي البيضاوي، وقيل: التعدية بذلك لأنه ضمن معنى ادخلوا"(١)

أكد ابن عاشور أن الخطاب على لسان سيدنا نوح عليه السلام ذاكرا الصورة البلاغية في الركوب واعتبره مجاز فقال: "وَقَالَ نُوحٌ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِمَنْ أُمِرَ بِحَمْلِهِ ارْكَبُوا. وَضَمِيرُ فِيها لِمَفْهُومٍ مِنَ الْمَقَامِ، أَيِ السَّفِينَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [الْقَمَر: ١٣] أَيْ سَفِينَةٍ. وَعُدِّيَ فِعْلُ ارْكَبُوا بِــ (فِي) جَرْيًا عَلَى الْفَصِيحِ فَإِنَّهُ يُقَالُ: رَكِبَ الدَّابَّةَ إِذَا عَلَاهَا. وَأَمَّا رُكُوبُ الْفلك فيعدّى بِــ (فِي) لِأَنَّ إِطْلَاقَ الرُّكُوبِ عَلَيْهِ مَجَازٌ، وَإِنَّمَا هُوَ جُلُوسٌ وَاسْتِقْرَارٌ فَلَا يُقَالُ: رَكِبَ السَّفِينَةَ، فَأَرَادُوا التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الرُّكُوبِ الْحَقِيقِيِّ وَالرُّكُوبِ الْمُشَابِهِ لَهُ، وَهِيَ تَفْرِقَةٌ حَسَنَةٌ."(٢)

كما اعترض الآلوسي على الزمخشري في بيانه المتكلم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤-٦٥] من أن ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ من كلام المتقين فقال الأمر ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ من الله للنبي صلى الله عليه وسلم بالثبات والمداومة والاستمرار بالعبادة مع الشدائد والمصاعب الواردة، فالمتكلم هو الله عز وجل فقال الآلوسي: "وجوز الزمخشري أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ من تتمة كلام

١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج٦ ص٢٥٤.

٢) التحرير والتنوير ج١٢ ص٧٣.

المتقين على تقدير أن يكون (رَبُّ) خبر مبتدأ محذوف ولم يجوز ذلك على تقدير الإبدال؛ لأنه لا يظهر حينئذ ترتب قوله سبحانه ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ إلخ عليه لأنه من كلام الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في الدنيا بلا شك، وجعله جواب شرط محذوف على تقدير ولما عرفت أحوال أهل الجنة وأقوالهم فأقبل على العمل لا يلائم- كما في الكشف- فصاحة التنزيل للعدول عن السبب الظاهر إلى الخفي، وتعدية الاصطبار باللام مع أن المعروف تعديته بعلى كما في قوله تعالى: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما تَوَرَّد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز: اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته، وفيه إشارة إلى ما يكابد من المجاهدة وأن المستقيم من ثبت لذلك ولم يتزلزل وشمة من معنى رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر."(١)

ابن عاشور ذكر المخاطب في الآية السابقة هو جبريل عليه السلام فقال: "أَيْ قُلْ يَا جِبْرِيلُ، فَكَانَ هَذَا خِطَابًا لِجِبْرِيلَ لِيُبَلِّغَهُ إِلَى النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرْآنًا. فَالْوَاوُ عَاطِفَةٌ فِعْلَ الْقَوْلِ الْمَحْذُوفِ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهُ عَطْفَ قِصَّةٍ عَلَى قِصَّةٍ مَعَ اخْتِلَافِ الْمُخَاطَبِ"(٢)

ومن دراسة المتكلم اختلف المفسرون في تحديد المخاطِب، هل المتقين؟ أم جبريل عليه السلام ليبلغه لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟، وأرجح ما ذهب إليه الآلوسي لأن الكلام صادر من الحق سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

٢- المتكلم الكفار أو أهل الحل والعقد

كما أشار الآلوسي إلى المستوى الثاني من المخاطِبين في النص القرآني، وهم تلكم الشخصيات التي حكى القرآن في قصصه وآياته أقوالهم وحواراتهم ما حكاه القرآن من أقوال الكافرين ومحاججاتهم، أو أَهْلُ الحل والعقد في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [ابراهيم:١٣] ونقده لأبي حيان في جعل (أو) بمعنى (حتى) أو (إلا) وبيانه تضمين تعودن معنى تدخلوا حكاية عن الكافرين من عودة من آمن والدخول في ملة هؤلاء الكفرة فقال: "قيل: لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين في الكفر من أولئك الأمم الكافرة التي نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم ولذلك لم يقل: وقالوا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا وجوز أن يكون المراد بهم أهل الحل والعقد الذين لهم قدرة على الإخراج والإدخال،

١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج٨ص٤٣٢.
٢) التحرير والتنوير ج١٦ ص١٣٩.

ويكون ذلك علة للعدول عن قالوا أيضا، وأو لأحد الأمرين، ومرادهم ليكونن أحد الأمرين إخراجكم أو عودكم، فالمقسم عليه في وسع المقسم، والقول بأنها بمعنى حتى أو إلا أن قول من لم يمعن النظر كما في البحر فيما بعدها إذ لا يصح تركيب ذلك مع ما ذكر كما يصح في لألزمنك أو تقضيني حقي، والمراد من العود الصيرورة والانتقال من حال إلى أخرى وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى، فيندفع ما يتوهم من أن العود يقتضي أن الرسل عليهم السلام كانوا وحاشاهم في ملة الكفر قبل ذلك. واعترض في الفرائد بأنه لو كان العود بمعنى الصيرورة لقيل إلى ملتنا فتعديته بفي يقتضي أنه ضمن معنى الدخول أي لتدخلن في ملتنا."(١)

حدد وخصص ابن عاشور المتكلم هم الكفار من أهل مكة ولم يذكر تضمينا في لتعودن فقال: "الْمُرَادَ بِـ الَّذِينَ كَفَرُوا هُنَا غَيْرُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَقَدَّمَت الْحِكَايَةُ عَنْهُمْ فَإِنَّ الْحِكَايَةَ عَنْهُمْ كَانَتْ بِطَرِيقِ الْإِضْمَارِ. فَالظَّاهِرُ عِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِـ الَّذِينَ كَفَرُوا هُنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَلَى طَرِيقَةِ التَّوْجِيهِ."(٢)

يلاحظ أن الآلوسي قد تنبه إلى خصوصية المتكلمين الذين حكى الله قولهم، وهم الكفار بما يتمسكون به من جحود وإنكار على رسلهم دعوتهم إلى توحيد الله، بل وطلب الصيرورة إلى الكفر بعد الإيمان، وهذا دراسة وبيان بشأن المتكلم.

٣- المتكلم الراسخون في العلم أو المؤمنون

ومن حديث الآلوسي عن معنى التربية ورعاية المصلحة المتضمن في التعبير بـ ربِّنا بيَّن مَن المتكلم والقائل في قوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧] فقال: "ثم هذا القول وإن لم يخص- الراسخين- لكن فيه تعريض بأن مقتضى الإيمان به أن لا يسلك فيه طريق لا يليق من تأويله على ما مر فكأن غيرهم ليس بمؤمن كل من عند ربنا من تمام مقولهم مؤكد لما قبله ومقرر له أي كل واحد منه ومن المحكم- أو كل واحد من متشابهه ومحكمه منزل من عنده تعالى لا مخالفة بينهما، وفي التعبير بالرب إشارة إلى سر إنزال المتشابه، والحكمة فيه لما أنه متضمن معنى التربية والنظر في المصلحة والإيصال إلى معارج الكمال أولا فأولا"(٣)

١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج٧ ص١٨٩.
٢) التحرير والتنوير ج١٣ص٢٠٥.
٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج٢ص٨١.

في هذه الآية تفرد الآلوسي عن غيره من المفسرين فيما أعلم في بيان المخاطِب ليس الراسخون فقط ولكن أدخل معهم المؤمنين.

٤- المتكلم الفريق الواعظ

ووضح الآلوسي الجانب التداولي في الخطاب بين متحاورين في القرآن الكريم والتفاعل بينهما فذكر المتكلم، ثم يذكر الرد والإجابة من المحاور له، مما يعطي التفهم ومراعاة المخاطِب، مع نقله عن الأزهري التضمين في لفظ الاعتذار لمعنى الإنتهاء عن الفعل في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤] فقال: "إن هذا تقاول وقع بين الصلحاء الواعظين كأنه قال بعضهم لبعض: لم نشتغل بما لا يفيد، ويحتمل على كلا القولين أن ذلك صدر من القائل بمحضر من القوم فيكون متضمنا لحثهم على الاتعاظ فإن بَتَّ القول بهلاكهم أو عذابهم مما يلقي في قلوبهم الخوف والخشية، وقيل قائلوا ذلك المعتدون في السبت قالوا: تهكما بالناصحين المخوفين لهم بالهلاك والعذاب، وفيه بُعْدٌ كما ستقف عليه قريبا إن شاء الله تعالى قالوا أي المقول لهم ذلك معذرة إلى ربكم أي نعظهم معذرة إليه تعالى على أنه مفعول، وهو الأنسب بظاهر قولهم: لم تعظون أو نعتذر معذرة على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف، وقيل: هو مفعول به للقول، وهو إن كان مفردا في معنى الجملة لأنه الكلام الذي يعتذر به. والمعذرة في الأصل بمعنى العذر وهو التنصل من الذنب، وقال الأزهري: إنه بمعنى الاعتذار، وعداه بإلى لتضمنه معنى الإنهاء والإبلاغ، وفي إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين نوع تعريض بالسائلين، وهذا الجواب على القولين الأولين ظاهر وعلى الأخير قيل إنه من تلقى السائل بغير ما يترقب فهو من الأسلوب الحكيم،"(١)

قد حدد ابن عاشور الواعظين والقائلين بأنهم الفريق الناجي فقال: "وَقَدْ أَجْمَلَتِ الْآيَةُ مَا كَانَ مِنَ الْأُمَّةِ الْقَائِلَةِ إِيجَازًا فِي الْكَلَامِ، اعْتِمَادًا عَلَى الْقَرِينَةِ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ: اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُنْكِرِينَ عَلَى الْمَوْعُوظِينَ، وَأَنَّهُمْ مَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مُهْلِكُهُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَارَسُوا أَمْرَهُمْ، وَسَبَرُوا غَوْرَهُمْ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَا تُغْنِي مَعَهُمُ الْعِظَاتُ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ التَّقَدُّمِ لَهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ، وَبِقَرِينَةِ قَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ إِذْ جَعَلَ النَّاسَ فَرِيقَيْنِ، فَعَلِمْنَا أَنَّ الْقَائِلِينَ مِنَ الْفَرِيقِ النَّاجِي، لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِظَالِمِينَ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ."(٢)

---

١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج٥ ص٨٥-٨٦.

٢) التحرير والتنوير ج٩ ص١٥١.

الحوار الوارد في الآية بين فريقين فريق يسأل وفريق واعظ يجيب، ويبين الانطباع العام لكل فريق من محاولة إيجاد عذر لأنفسهم أمام الله يوم القيامة للفريق الواعظ، ومحاولة الحث والحض من الفريق السائل للموعوظين بقبول النصح والوعظ والإرشاد والعمل به، وهذا من الاهتمام بالمتكلم.

٥- تنوع المتكلم

ومن التداولية في تفسير الآلوسي ذِكْرُه المخاطِب والمخاطَب في النداء وتضمنه معنى القول والمنادي هم المؤمنون أو خزنة جهنم، والمنادى هم الكافرون في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر:١٠] فقال: "شروع في بيان أحوال الكفار بعد دخول النار ينادُون وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم الأمارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتباع هواها حتى أكلوا أناملهم من المقت كما أخرج ذلك عبد بن حميد عن الحسن.... والمنادى الخزنة أو المؤمنون يقولون لهم إعظاما لحسرتهم: لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم وهذا معمول للنداء لتضمنه معنى القول كأنه قيل ينادون مقولا لهم لمقت إلخ أو معمول لقول مقدر بفاء التفسير أي ينادون فيقال لهم: لمقت إلخ، وجعله معمولا للنداء على حذف الجار وإيصال الفعل بالجملة ليس بشيء، و (مقت) مصدر مضاف إلى الاسم الجليل إضافة المصدر لفاعله، وكذا إضافة المقت الثاني إلى ضمير الخطاب."(١)

قد خصص ابن عجيبة النداء من الملائكة خزنة جهنم فقال: "من قِبل الخزنة- وهم في النار"(٢)

أجد الخطاب يجريه الله على لسان الملائكة لأهل النار بأن مقت الله لكم أشد من مقتكم أنفسكم فهذا هو حال أهل النار.

الخطاب القرآني من الله وإن جرى على لسان خلقه علامة على علم الله بحال المخاطَب، ويريد منا الإقبال عليه، ووجوب الإصغاء إلى المتكلم، ووجوب الامتثال والتطبيق، والأدب مع المتكلم وهو الله، العلم بعظم المتكلم، ومن خلال ما سبق ظهر أن الآلوسي درس المخاطِب في تفسيره مع مراعاة القرآن كلام الله عز وجل وإجراء القرآن على لسان الملائكة خزنة جهنم، أو جبريل عليه السلام، أو المؤمنين، أو أعضاء الإنسان، أو الكفار، أو فرعون، أو امرأة فرعون.

أجد أن بعض المفسرين ذكر إمكانية كون المخاطِب واحد أو أكثر من مخاطب.

---

١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٢ ص٣٠٣.
٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج٥ ص١١٧.

- **المبحث الثاني/ المخاطَب (المتلقي):**

إذا كان علم التخاطب يولي المخاطِب أهمية كبيرة لفهم الفعل التخاطبي لكونه أحد عناصره، فإن المخاطَب أو المتلقي صار بؤرة العملية التأويلية ومركـزه عنـد أصـحاب نظريات التلقي أو "جماليات التلقي"، فأصبح أولى بالنص من منشئه. وهـذا التطـور فـي مركزية دور المتلقي سبقه التطور في مركزية النص عند البنيـويين، فمنـذ أعلـن رولان بارت موت المؤلِّف، ووجوب تخلي (الكاتب= المخاطِب) عن عرشه وسلطانه الذي تربـع عليه زمناً طويلاً للنص، ثم للقارئ، ومما لاشك فيه أن تطور الدراسات النقديـة واللـسانية التي وجهت وجهها ناحية النص أو القارئ أو السياق قدمت من الرؤى والطروحات النقدية ما أغنى مفهوم "الفهم" و"التأويل". وقد كان لكلّ هذه التطورات أثره فـي تكـوين الرؤيـة التداولية في علم التخاطب؛ فمناط النظر عند التداوليين هو جملة هذه العناصر مجتمعة. أي بمعنى آخر إعادة توزيع البؤرة المركزية في العملية النقدية والقرائيـة علـى عناصـرها الأربعة (المخاطَب، المخاطِب، الخطاب، السياق) دون إهمال لأي منها لـصالح مركزيـة اقتصارية، تجعل "الفهم" و"التأويل" مهمة احتكارية للمؤلِّف أو للنص أو للمتلقي أو للـسياق. وعليه فقد كان وجود المخاطَب أولاً، ثم دوره ثانياً شرطاً لتحقـق الخطـاب وفهمـه لتـتم وتكتمل عملية التواصل.(1)

وانطلاقاً من ذلك ينظر علم التخاطب إلى المخاطَـب مـن منظـورين: وجـوده، ودوره. المخاطب الفعلي، فهو المخاطب بالقرآن في زمن التنزيل القرآنـي علـى النبـي صلى الله عليه وسلم. وهؤلاء كما في علم التخاطب مستويان: العام، والخاص.

فالخاص من كان مقصوداً بالخطاب بعينـه أو أعيـانهم، وهـم إمـا أن يكونـوا حضوراً، وكلاماً، داخل النص القرآني كالملائكة في حوارهم مـع الله، وإمـا أن يكونـوا خارج النص القرآني، كالنبي صلى الله عليه وسلم، أو من خاطبـه الله فتنزلـت بـه ولـه الآيات.

أما العام فهم "الأمة العربية بل والعالم أجمع" في زمن التنزيل. وفي هذا المـستوى دوائرُ تتداخل، أولها: النبي صلى الله عليه وسلم، فهو أول من خوطب بالقرآن من البـشر، وهو أعلمهم بمعانيه ومقاصده، وإذا كانت هذه صفته كان مـن الـلازم أن يكـون أكثـر المخاطبين أهلية وكفاءة لحمل الخطاب، فهو "أفصح العرب"، "ومن أوتي جوامـع الكلـم"، وأحاديثه بيان للقرآن واجبة الأخذ لفهم كلام الله.

1) مقاصد الخطاب القرآني بين المفسرين والتداوليين ص٢٩ بتصرف.

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أول المخاطبين بالقرآن جملة، فهو من المخاطبين بالمعنى الخاص في كثير من آياته، ولا أدلّ على ذلك من ضمائر المخاطب التي ترجع عليه في القرآن الكريم. وهذا التداخل بين الخاص والعام سيدعو المفسر للتمييز والتفريق بين ما كان من الخطاب مقصوداً للنبي وحده دون سواه، وما كان لسائر المخاطبين.

أما الدائرة الثانية فهي قريش، وهم أول من بلَّغهم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، وقصدهم لفهمه، ثم الإيمان به أنه من عند الله. ومع نزول القرآن انقسمت قريش كمخاطب إلى فئتين: مؤمنة، وهي القلة. وكافرة، وهي الكثرة. وبعد قريش توسع الخطاب فشمل أصنافاً من الناس يجمعهم لسان العرب من أهل يثرب، أو أهل الكتاب، أو عرب الجزيرة. وبذلك تكتمل دائرة المخاطبين الفعليين بالنص القرآني العربي في ظلّ حدي المكان والزمان. و لم يمت النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقد دخلت جزيرة العرب الإسلام سواء كان ذلك بالمعنى الإيماني أو المعنى السياسي.

وقد فطن الآلوسي إلى كل ماسبق من مستويات الخطاب، من بيان المخاطَب الخاص وهو النبي ﷺ، ثم المستوى الثاني وهم أمة النبي ﷺ لاكتمال عملية الخطاب، واعتمده في تفسيره للقرآن الكريم، فبين التضمين لمعنى القول، ومن ذلك على سبيل المثال

١- خطاب النبي ﷺ وأمته

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣] فقال: "والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام أي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمرا مؤكدا، وتخصيص المذكورين بالذكر لما أشير إليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعيسى عليه السلام وإلا فما من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام كما ينبىء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به، والمراد بايحائه إليه صلى الله عليه وسلم إما ما ذكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ٧] الآية وإما ما يعمهما وغيرهما ما وقع في سائر المواقع التي من جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] وغير ذلك، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع في الآية المذكورة ولما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بايحائه، وفي ذلك إشعار بأن شريعته صلى الله عليه وسلم هي الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء ولذا عبر فيها بالذي التي هي أصل الموصولات وذلك هو السر في تقديم الذي أوحى إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده مع تقدمه عليه زمانا، وتقديم توصية نوح(١) عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم دينا قديما، وقد قيل إنه عليه الصلاة والسلام أول الرسل، وتوجيه الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه صلى الله عليه وسلم (أن أقيموا الدين) أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون العبد به مؤمنا،....وجوز كونه بدلا من الدين ويجوز كون أن مفسرة فقد تقدمها ما يتضمن معنى القول دون حروفه والخطاب في أقيموا وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ على ما اختاره غير واحد من الأجِلَّة شامل للنبي صلى الله عليه وسلم"(٢)

وافق ابن عاشور الآلوسي في توجيه الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين ولكن لم يذكر تضمين فقال: "انْتِقَالٌ مِنْ الِامْتِنَانِ بِالنِّعَمِ الْجُثْمَانِيَّةِ إِلَى الِامْتِنَانِ بِالنِّعْمَةِ الرُّوحِيَّةِ بِطَرِيقِ الْإِقْبَالِ عَلَى خطاب الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ لِلتَّنْوِيهِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ وَلِلتَّعْرِيضِ بِالْكُفَّارِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْهُ."(٣)

من هذا يكون الآلوسي قد راعى وجود المخاطَب وهو النبي ﷺ والمؤمنين من خلال فهمه للنص القرآني، وأشار إلى تضمين الآية معنى القول.

٢- خطاب النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨]ضمن الآلوسي تبتل معنى بتل، وفطن إلى حال المخاطَب وهو النبي ﷺ وبين دوره في عملية الخطاب؛ بأنه لم ينس الله أبدا حتى يؤمر بالذكر، وقوة إدراك المخاطَب في الوصول إلى قصد المتكلم، والسياق الذي ورد فيه اللفظ يدل على معنى الانقطاع والتجرد لله سبحانه وتعالى فقال: " أي ودم على ذكره تعالى ليلا ونهارا على أي وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة

١) في النسخة التي بين يدي (نوع) وهو تحريف.

٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٣ص٢٢.

٣) التحرير والتنوير ج٢٥ ص٤٩.

وقراءة قرآن وغير ذلك وفسر الأمر بالدوام لأنه عليه الصلاة والسلام لم ينسه تعالى حتى يؤمر بذكره سبحانه والمراد الدوام العرفي لا الحقيقي لعدم إمكانه ولأن مقتضى السياق أن هذا تعميم بعد التخصيص كان المعنى على ما سمعت من اعتبار ليلا ونهارا وتبتل إليه أي وانقطع إليه تعالى بالعبادة وجرد نفسك عما سواه عز وجل واستغرق في مراقبته سبحانه وكان هذا أمرا بما يتعلق بالباطن بعد الأمر بما يتعلق بالظاهر ولتأكيد ذلك قال سبحانه (تبتيلا) ونصبه بتبتل لتضمنه معنى (بتل) على ما قيل وقد تقدم الكلام في تحقيق ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] فتذكر فما في العهد من قدم وكيفما كان الأمر ففيه مراعاة الفواصل"(١)

يلاحظ أن الآلوسي أشار إلى وجود المخاطَب وهو النبيﷺ وبين دوره في الخطاب بالتجرد لله تعالى بالعبادة في الظاهر والباطن.

٣- تنوع المخاطب (الناس عموما أو المشركين)

أشار الآلوسي إلى إمكانية تنوع المخاطَب الناس عموما، أو المشركين، وتضمن ما معنى الشرط يناسب جحود وإنكار المشركين فقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الشورى:٣٦] "والظاهر أن الخطاب للناس مطلقا، وقيل: للمشركين، وما موصوله مبتدأ والعائد محذوف أي أوتيتموه والخبر ما بعد، ودخلت الفاء لتضمنها معنى الشرط، وقال أبو حيان: هي شرطية مفعول ثان لأوتيتم ومن شيء بيان لها وقوله تعالى: ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم فيها جواب الشرط، والأول أوفق بقوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة خير ذاتا لخلوص نفعه وأبقى زمانا حيث لا يزول ولا يفنى لأن الظاهر أن ما فيه موصولة وإنما لم يؤت بالفاء في خبرها مع أن الموصول المبتدأ إذا وصل بالظرف يتضمن معنى الشرط أيضا لأن مسببية كون الشيء عند الله تعالى لخيريته أمر معلوم مقرر غني عن الدلالة عليه بحرف موضوع له بخلاف ما عند غيره سبحانه"(٢)

ذهب ابن عاشور إلى أن الخطاب للمشركين وينسحب على المؤمنين أو هو لجميع الأمة مع وجود التضمين فقال: "وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: أُوتِيتُمْ لِلْمُشْرِكِينَ جَرْيًا عَلَى نَسَقِ الْخِطَابِ السَّابِقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٥ ص١١٨.
٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٣ص٤٥.

[الشورى: ٣١]، وَيَنْسَحِبُ الْحُكْمُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِلَحْنِ الْخِطَابِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، فَالْفَاءُ الْأُولَى لِلتَّفْرِيعِ، وَمَا مَوْصُولَةٌ ضُمِّنَتْ مَعْنَى الشَّرْطِ"(١)

إتفق الآلوسي وابن عاشور على أن المخاطب هم المشركون أو جميع الأمة؛ لأنه مهما أعطوا من شيء فهو من متاع الدنيا و زينتها الزائفة والزائلة، وقد ذهبا إلى أن (ما) في الآية اسم موصول متضمن معنى الشرط خلافا لأبي حيان الذي جزم بأن (ما) اسم شرط.

٤- تعدد المخاطب (إبليس، الجن، من كذَّب وأشرك)

ذكر الآلوسي توجيه الخطاب علي القراءة الواردة في الآية القرآنية في معرض بيان التضمين من بيان المخاطِب والمخاطَب في قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨] فقال: "وذهب كثير إلى أن ضمير ليعلم لله تعالى وضمير أبلغوا إما للرصد أو لمن ارتضى والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد في الضميرين قبل باعتبار لفظها والمعنى أنه تعالى يسلكهم ليعلم أن الشأن قد أبلغوا رسالات ربهم علما مستتبعا للجزاء وهو أن يعلمه تعالى موجودا حاصلا بالفعل كما في قوله تعالى ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١] فالغاية في الحقيقة هو الإبلاغ والجهاد وإيراد علمه تعالى لإبراز اعتنائه تعالى بأمرهما والإشعار بترتب الجزاء عليهما والمبالغة في الحث عليهما والتحذير عن التفريط فيهما وقوله تعالى ﴿ وَأَحَاطَ﴾ إلخ إما عطف على لا يظهر أو حال من فاعل يسلك جيء به لدفع التوهم وتحقيق استغنائه تعالى في العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد على الوجه المذكور أو عطف كما زعم بعض على مضمر لأن ليعلم متضمن معنى علم فصار المعنى قد علم ذلك وأحاط إلخ وجوز أن يكون ضمير يعلم للرسول الموحى إليه وضمير أبلغوا للرصد النازلين إليه بالوحي. وروي عن ابن جبير ما يؤيده أو للرسل سواه وأحاط إلخ عطف على أبلغوا أو على لا يظهر وعن مجاهد ليعلم من كذب وأشرك أن الرسل قد أبلغوا وفيه من البعد ما فيه وعليه لا يقع هذا العلم على ما في البحر إلا في الآخرة وقيل ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا وقيل ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم... وقرىء «عالم» بالنصب على المدح «وعلم» فعلا ماضيا «الغيب» بالنصب وقرأ ابن عباس وزيد بن علي «ليعلم» بالبناء للمفعول والزهري وابن أبي عبلة «ليُعْلِم» بضم الياء وكسر اللام من الإعلام أي ليعلم الله تعالى من شاء أن يعلمه أن قد أبلغوا إلخ"(٢)

---

١) التحرير والتنوير ج٢٥ ص١٠٩.

٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٥ ص١١١.

قال ابن عاشور: "وَيَلْحَقُ بِهِ مَا يُوحَى بِهِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا رُسُلًا لِأَنَّ مَا يُوحَى إِلَيْهِمْ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ تَأْيِيدًا لِشَرْعٍ سَابِقٍ كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْحَوَارِيِّينَ أَوْ أَنْ يَكُونَ لِإِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مِثْلَ آدَمَ وَأَيُّوبَ... وَقَرَأَ رُوَيْسٌ عَنْ يَعْقُوبَ لِيُعْلَمَ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ اللَّامِ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ عَلَى أَنَّ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا نَائِبٌ عَنِ الْفَاعِلِ، وَالْفَاعِلُ الْمَحْذُوفُ حُذِفَ لِلْعِلْمِ بِهِ، أَيْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا."(١)

المخاطب موجود وله دور، فالمعنى ليعلم الرسول الموحى إليه المأمور بالتبليغ من الملائكة ومن البشر، أو النبي الذي لم يؤمر بالتبليغ، أو ليعلم إبليس، أو ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا.

٥- خطاب الكفرة

بين الآلوسي المخاطَب الفعلي، وهو المخاطَب بالقرآن في زمن التنزيل مع بلاغة المتكلم في إشراب فاتنين وتضمنه معنى الاستيلاء، وتعديته بعلى في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦١ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ [الصافات:١٦١-١٦٢] بأنه خطاب للكفرة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مراعيا ما يتناسب مع الجحود والإنكار من الكفار فقال: "عود إلى خطابهم، والفاء في جواب شرط مقدر أي إذا علمتم هذا أو إذا كان المخلصون ناجين فإنكم إلخ، والواو للعطف وما تعبدون معطوف على الضمير في فإنكم وضمير عليه لله عز وجل والجار متعلق بفاتنين وعدي بعلى لتضمنه معنى الاستيلاء وهو استعارة من قولهم فتن غلامه أو امرأته عليه إذا أفسده والباء زائدة وهو خبر ما، والجملة خبر إن والاستثناء مفرغ من مفعول فاتنين المقدر وأنتم خطاب للكفرة ومعبوديهم على سبيل التغليب "(٢)

ذكر القاسمي بأن الخطاب للمشركين فقال: " فإنكم أيها المشركون بالله وَما تَعْبُدُونَ من الآلهة والأوثان ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ أي ما أنتم على ما تعبدون من دون الله بمضلين أحدا، إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ أي من سبق في علمي أنه صال الجحيم."(٣)

المبحث الثالث: الخطاب ومعناه(النص)

الخطاب هو النص اللغوي بعد استعماله.(٤) ولست هنا في مقام بحث اختلاف المفكرين والباحثين في ماهية الخطاب، وتتداخله مع مفهوم "النص" تضيقاً أو اتساعاً. فالبحث يستخدم مفهوم "الخطاب" بمعنى أنه نص في الاستعمال. أي أن الخطاب يشتمل

١) التحرير والتنوير ج٢٩ ص٢٥٠-٢٥١.
٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ١٢ص١٤٥.
٣) محاسن التأويل ج٨ ص٢٣٢، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي المحقق: محمد باسل عيون السود الناشر: دار الكتب العلميه –بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
٤) المعنى وظلال المعنى، ص ١٥٧. محمد محمد يونس علي، أنظمة الدلالة في العربية، ط ٢، دار المدار الإسلامي: بيروت.

على نص مع استعمال لهذا النص. وقد شكل المعنى، وآليات إنتاجه جزءاً مهماً من نظريات علم التخاطب.

وللعلماء في رسمهم أدوات الفهم للنص القرآني إدراك لأهمية التطور التكوني للنص، ومن هنا جاء اهتمام العلماء بالمكي والمدني، وترتيب الآيات نزولاً لمعرفة الناسخ من المنسوخ، والمطلق من المقيد، والمجمل من المفصل، وغيرها من قواعد الفهم والتفسير. وهي بجملتها تقوم وتتعمد على الترتيب الزماني للآيات، فلا يكون الناسخ إلا تالياً للمنسوخ، ولا المقيد إلا بعد مطلقه، ولا المفصل إلا بعد مجمله. فقال الشاطبي: "الْمَدَنِيُّ مِنَ السُّوَرِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُنَزَّلًا فِي الْفَهْمِ عَلَى الْمَكِّيِّ، وَكَذَلِكَ الْمَكِّيُّ بَعْضُهُ مَعَ بَعْضٍ، وَالْمَدَنِيُّ بَعْضُهُ مَعَ بَعْضٍ، عَلَى حَسَبِ تَرْتِيبِهِ فِي التَّنْزِيلِ، وَإِلَّا لَمْ يَصِحَّ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى الْخِطَابِ الْمَدَنِيِّ فِي الْغَالِبِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمَكِّيِّ، كَمَا أَنَّ الْمُتَأَخِّرَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَبْنِيٌّ عَلَى مُتَقَدِّمِهِ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الِاسْتِقْرَاءُ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِبَيَانِ مُجْمَلٍ، أَوْ تَخْصِيصِ عُمُومٍ، أَوْ تَقْيِيدِ مُطْلَقٍ، أَوْ تَفْصِيلِ مَا لَمْ يُفَصَّلْ، أَوْ تَكْمِيلِ مَا لَمْ يَظْهَرْ تَكْمِيلُهُ"(١)

وفي سياق الحديث عن النص القرآني "لابدّ لنا من أن نفرق ونميز بين خطاب النص القرآني وخطاب تأويله، فـ"التأويل" خطاب منتج، قائم "على الممكن والنسبي، وحاصل في الأفهام على مقدار اختلافها وتفاوتها، أما الخطاب القرآني صالح ومصلح لكل زمان ومكان، يتسع ليشتمل كل الأفهام والعقول، القرآن فياض بمعانيه، سابق لكل الظروف، وهذه الدراسة قائمة على تفسير الآلوسي للقرآن بما يحويه من درس تداولي.

فأهداف الخطاب ومقاصد التخاطب تتنوع بحسب الزاوية التي يُدْرَسُ منها الخطاب، فالهدف من ناحية المخاطِب هو التعبيرية، والهدف من ناحية المخاطَب الإقناعية والتأثيرية والإفهامية، والهدف من ناحية النص الأدبية بما يقوم به المنشئ من إثارة ولفت انتباه المتلقي والتأثير فيه، من تأكيد أو تكرار أو إطناب أو غير ذلك، والهدف من ناحية السياق المرجعية أو المطابقة لمقتضى الحال من عدمها.

إن بنية النص القرآني القابلة للتأويل هي التي تعطي أي تأويلٍ قابلية للوجود، ومن ثم الاستمرار، وهذه القابلية التأويلية أكسبت المفسرين للقرآن قوة تداولية لا تُحد بزمان أو مكان.

ومن ملحظ تداولي آخر، يظهر أن غاية الكلام هي الفهم والإفهام كما أكده الجاحظ في البيان والتبيين فقال: "لأن مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الأفهام والتفهم. وكلما

---

١) الموافقات ج٤ ص٢٥٦، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان الناشر: دار ابن عفان الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

كان اللسان أبين كان أحمد كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد. والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم."(١)

فالإفادة هي مقصد الخطاب الأول في علم الخطاب، والمقاصد أنواع منها:

١-**مقصد التعظيم:** ولتحقيقه أساليب كثيرة، وطرائق لغوية ولفظية عديدة، ليس هنا محلّ بيانها كلها، فالغرض هنا بيان أن التعظيم مقصد من مقاصد الخطاب القرآني.

وأعظم ما يقصد تعظيمه في القرآن هو الله سبحانه وتعالى. ومن أكثر أساليب التعظيم لله في الخطاب القرآني كثافة حضور اسم "الله" أو أسمائه وصفاته الحسنى في مواطن يمكن أن يأتي مكانها ضمائر متكلم أو غيبة، ومقصد التعظيم يحصل بذكر الاسم الظاهر مكان الضمير متى لم يكن هذا الإظهار لغرض إزالة اللبس. وأمثلة الإظهار عوض وبدل الإضمار في القرآن كثيرة.

ومن التعظيم إضافة الأشياء إلى الله مثل قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣] وبيت الله الحرام، أجد هذا التعظيم في إضافة الأنصار إلى الله في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢] قال الآلوسي: "والمعنى من ينصرني حال كوني ملتجئا إلى الله تعالى أو ذاهبا إلى الله، إما أن يتعلق- بأنصاري- مضمنا معنى الإضافة أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله في نصري"(٢)

قال ابن عجيبة: "ذاهباً إلى الله إلى نَصْر دينه، أو مُضيفاً نفسه إلى الله، أو ملتجئاً إلى الله، أو يتعلق بـ (أنصاري) مضمّناً معنى الإضافة، أي: من يضيف نفسه إلى الله في نصره."(٣)

فهذا تعظيم للمخاطب في إضافته إلى الله حال كونه من الناصرين لي، هكذا تكون بلاغة المتكلم حيث أشرب معنيين في لفظ واحد أي يضيفون أنفسهم مع الله لنصري.

٢- **مقصد التكريم:** وهو كالتعظيم يقصد منح المخاطَب والخطاب قيمة إيجابية الغالب أن تكون لغير الله من عباده ومخلوقاته، أجد قوة المخاطب في الوصول إلى قصد الله تعالى من مقصد التكريم في بيان تكريم ورفع الله مكانة سيدنا محمد ﷺ، ومن بلاغة المتكلم تضمين لفظ رفع معنى بلغ في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] حيث

١) البيان والتبيين ج١ ص٣٤، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: ١٤٢٣ هـ.

٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج٢ ص١٦٨.

٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج١ ص٣٥٧.

قال الآلوسي: "أي ومنهم من رفعه الله تعالى على غيره من الرسل بمراتب متباعدة ومن وجوه متعددة، وتغيير الأسلوب لتربية ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشرف، والمراد ببعضهم هنا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ينبئ عنه الأخبار بكونه صلى الله عليه وسلم منهم فإنه قد خص بمزايا تقف دونها الأماني حسرى.

وامتاز بخواص علمية وعملية لا يستطيع لسان الدهر لها حصرا. ورقي أعلام فضل رفعت له على كواهله الأعلام. وطأطأت له رؤوس شرفات الشرف فقبَّلت منه الأقدام فهو المبعوث رحمة للعالمين. والمنعوت بالخلق العظيم بين المرسلين، والمنزل عليه قرآن مجيد ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] والمؤيِّد دينه المؤيَّد بالمعجزات المستمرة الباهرة. والفائز بالمقام المحمود والشفاعة العظمى في الآخرة، والإبهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلم الفرد الغني عن التعيين، وقيل: المراد به إبراهيم حيث خصه الله تعالى بمقام الخلة التي هي أعلى المراتب ولا يخفى ما فيه، وقيل: إدريس لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] ، وقيل: أولو العزم من الرسل، وفيه- كما في الكشف- أنه لا يلائم ذوق المقام الذي فيه الكلام البتة، وكذا الكلام عندي في سابقه إذ الرفعة عليه حقيقة والمقام يقتضي المجاز كما لا يخفى، ودرجات- قيل: حال من بعضهم على معنى ذا درجات، وقيل: انتصابه على المصدر لأن الدرجة بمعنى الرفعة فكأنه قيل: ورفعنا بعضهم رفعات، وقيل: التقدير- على- أو- إلى- أو- في- درجات فلما حذف حرف الجر وصل الفعل بنفسه، وقيل: إنه مفعول ثان لرفع على أنه ضمن معنى بلغ"(١)

وقال القاسمي: "والظاهر أنه أراد محمدا صلّى الله عليه وسلم لأنه هو المفضل عليهم حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر. ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتي الأنبياء. لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات. وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى."(٢)

٣- مقصد الإهانة: وهو مقصد إعطاء المخاطب أو خطابه قيمة سلبية، وهي إن كانت تعطي هذه القيم السلبية للمخاطبين وخطابهم، فهي لا تنفي عنه صفة العظمة القرآنية، فهو بوروده في القرآن صار كلاماً لله، وجهة العظمة فيه حكاية الله لهذا الكلام لا أصل كلامهم.

١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج٢ص٤.
٢) محاسن التأويل ج٢ ص١٨٧.

وفي مقصد إعطاء المخاطب أو خطابه قيمة سلبية أجد الآلوسي ذكر الغرض من الخطاب وهو إظهار خطئهم من جعلهم شركاء لله وبيان التضمين في كلمة ألحقتم معنى جعلتم أو سميتم، فالهدف التعبير من الله للإقناع والتأثير في المخاطبين ولفت انتباههم وإفهامهم خطئهم في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ:٢٧] فقال: "أي ألحقتموهم متوهما شركتهم أو مفعول ثان لألحق لتضمينه معنى الجعل أو التسمية، والمراد أرونيهم لأنظر بأي صفة ألحقتموهم بالله عز وجل الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة أو ألحقتموهم به سبحانه جاعليهم أو مسميهم شركاء، والغرض إظهار خطئهم العظيم."(١)

وافق القاسمي الآلوسي في الغرض من طلب الرؤية فقال: "إظهار خطئهم العظيم واطلاعهم على بطلان رأيهم. أي أرونيها لأنظر بأي صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة. وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم."(٢)

٤- مقصد الهداية: ترغيباً، وترهيباً. وهو غاية المقاصد والأهداف القرآنية، فهو كتاب هداية، فالقرآن في مقاصد خطابه، ومقاصد ما بعد خطابه، ومقاصد مفهومه، وحجاجه، وتأثيره، وتقويمه، لا تخرج إلا لمقصد الهداية، فمن أساليب الهداية كلّ ما مر وكلّ ما سيأتي، فأذكر هنا نماذج لأساليب أخرى تحقق مقصد الهداية. فمنها خطاب التهييج كما سماه الزركشي(٣) ومن ذلك قول الآلوسي في بيان تضمين تبدي معنى التصريح وتهيُّج وتحرُّك قلب ومشاعر أم موسى عليه السلام في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:١٠] "أي أنها كادت إلخ على أن إن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة أو ما كادت إلا تبدي به على أن إن نافية واللام بمعنى إلا وهو قول كوفي والإبداء إظهار الشيء وتعديته بالباء لتضمينه معنى التصريح، وقيل: المفعول محذوف والباء سببية أي تبدي حقيقة الحال بسببه أي بسبب ما عراها من فراقه، وقيل: هي صلة أي تبديه وكلا القولين كما ترى، والظاهر أن الضمير المجرور لموسى عليه السلام، والمعنى أنها كادت تصرح به عليه السلام وتقول وا ابناه من شدة الغم والوجد رواه الجماعة عن ابن عباس، وروي ذلك أيضا عن قتادة والسُّدِّي وعن مقاتل أنها كادت تصيح وا ابناه عند رؤيتها تلاطم الأمواج به شفقة عليه من الغرق، وقيل: المعنى أنها كادت تظهر أمره من شدة الفرح بنجاته وتبني فرعون إياه"(٤)

---

١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ١١ ص٣١٦.
٢) محاسن التأويل ج٨ ص١٤٨.
٣) البرهان في علوم القرآن ج٢ ص٢٤٧.
٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٠ ص٢٥٩.

ورد التضمين عند الآلوسي في سياق الاحتراز بفعل المقاربة (كادت) ثم لولا امتناع لوجود، فلولا أن اللَّه ربط على قلبها بالصبر لجهرت به وصرحت بل كادت، ولكن اللَّه ربط لسانها وكأنما كان قلبها على لسانها فربطه ربنا بالصبر.

بين ابن عاشور مقصد الهداية بالربط على قلب أم موسى عليه السلام بالصبر مع التضمين في تبدي لمعنى تبوح فقال: "وَالْبَاءُ فِي بِهِ إِمَّا لِتَأْكِيدِ لُصُوقِ الْمَفْعُولِ بِفِعْلِهِ وَالْأَصْلُ: لَتُبْدِيهِ، وَإِمَّا لِتَضْمِينِ (تُبْدِي) مَعْنَى (تَبُوحُ) وَهُوَ أَحْسَنُ وإِنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ. وَاللَّامُ فِي لَتُبْدِي فَارِقَةٌ بَيْنَ إِنْ الْمُخَفَّفَةِ وَ (إِنِ) النَّافِيَةِ. وَالرَّبْطُ عَلَى الْقَلْبِ: تَوْثِيقُهُ عَنْ أَنْ يَضْعُفَ كَمَا يُشَدُّ الْعُضْوُ الْوَهِنُ، أَيْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا بِخَلْقِ الصَّبْرِ فِيهِ. وَجَوَابُ لَوْلا هُوَ جُمْلَةُ إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ."(١)

١) التحرير والتنوير ج٢٠ ص٨٢.

الخاتمة:

١- عرض الآلوسي المتلقي بطبقاته المتنوعة من النبي ﷺ، أوالمؤمنين، أوالناس عموما، أوالمشركين في زمن النبوة، أو إبليس، أو الجن، وما دام النص القرآني من الله فيأتي دور المخاطَب، فيتطلب من المخاطَب أمورا ألا وهي: وجوب الإقبال على الله، ووجوب الإصغاء إلى الله وليس مجرد السماع إليه، ووجوب الامتثال بالتطبيق والتنفيذ لأوامره، والابتعاد عن محارمه، واجتناب نواهيه، بل وجوب حسن الأدب مع الله في تنفيذ شرعه تعالى عن طريق أخلاقيات وشروط الأدب مع الله سبحانه وتعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وحسن الأدب مع القرآن، وحسن الأدب مع النبي ﷺ.

٢- إن الآلوسي تناول الهدف والقصد من الخطاب القرآني من مقصد التعظيم، ومقصد التكريم، ومقصد الإهانة، ومقصد الهداية. ويجب أن أشير إلى ما يمكن تسميته تظافر المقاصد أو تدافعها، فالتظافر اجتماع أكثر من مقصد في الخطاب الواحد اجتماعاً تتآلف فيه، فكأن كلّ مقصد يدلّ على الآخر ويقوى به. وهذا ظاهر في كثير من آيات كتاب الله.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١. استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
٢. البرهان في علوم القرآن المؤلف: بَدْر الدِّينِ مُحَمَّد بْن عَبْدِ اللَّهِ بْن بهادر الزركشي المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه (ثم صورته دار المعرفة، بيروت، لبنان - وبنفس ترقيم الصفحات)
٣. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد المؤلف: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة الطبعة: ١٤١٩ هـ
٤. البيان والتبيين ، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: ١٤٢٣ هـ.
٥. التحرير والتنوير المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ
٦. دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.
٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ
٨. محاسن التأويل المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي المحقق: محمد باسل عيون السود الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
٩. المعنى وظلال المعنى، محمد محمد يونس علي، أنظمة الدلالة في العربية، ط ٢، دار المدار الإسلامي: بيروت.
١٠. مقاصد الخطاب القرآني بين المفسرين والتداوليين، إعداد: نارت محمد خير يحي فاخون، رسالة ماجستير كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩م.
١١. الموافقات، المؤلف: الشاطبي المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان الناشر: دار ابن عفان الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.د